# السيميولوجيا بقراءة رولان بارت

**د. وائل بركات***

## الملخص

يحاول هذا البحث المعنون بـ"السيمولوجيا بقراءة رولان بارت" التعريف بالسيمولوجيا على نحوٍ عام وبالسيمولوجيا لدى رولان بارت على نحوٍ خاص. أمّا على الصعيد العام فيكشف تاريخ السيميولوجيا عن ظهور تيارين متزامنين في الوقت نفسه: تيار الفيلسوف الأمريكي ساندرز بيرس (١٨٣٨-١٩١٤) الذي أطلق على العلم اسم "السيموطيقيا"، والتيار الثاني الذي عرف باسم "السيميولوجيا" من تحت العالم السويسري فردينان دو سوسير (١٨٥٧-١٩١٣). فيما تتمتع العلامة في "السيميوطيقيا" بتقريع ثلاثي، تكتسب لدى صاحب السيميولوجيا تقريعاً ثنائياً، وهو ما اعتمده رولان بارت في تأسيس مغامرته السيميولوجية. تستثمر رؤية رولان بارت السيميولوجية أفكار سوسير وهيلمسليف مبتعداً قدر الإمكان عن السيموطيقيا، وربما يمكن تفسير ذلك بصعوبة أفكار بيرس التي تشعبت كثيراً. وتستند سيميولوجيا بارت إلى أفكار سوسير فيما يتعلق بمجموعة من الثنائيات: "اللغة /الكلام، الدال/المدلول. تجلى عمل بارت بتحريك هذه الثنائيات إلى حقول اجتماعية وثقافية وطقسية متنوعة كالموضة والمصارعة والمطبخ وغيرها، الأمر الذي منح هذه السيميولوجيا طابع الطرفة والمتعة. لكن هذا لا يعني أن سيميولوجيا بارت لم تعان من الضعف بسبب التقوقع ضمن المنظومة السوسيرية والابتعاد عن الغنى الذي امتازت به سيميوطيقيا بيرس.

* قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

## تمهيد

لا شك في أن إسهام رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠) في الحقول الأدبية المتنوعة قد منح الخطاب النقدي أبعاداً جديدة مختلفة، الأمر الذي وسّع من طرائق القراءات النقدية واتجاهاتها. وإذا تساءلنا عن مسوغات تنوع التوجهات المتعددة لدى بارت سنجد الإجابة في أنَّ الناقد قد تحرك في فضاء من الأنساق المعرفية المتنوعة كالفلسفة وعلم الاجتماع والأنتربولوجيا واللسانيات فضلاً عن نظرية المعرفة.

وتكون القراءة السيميولوجية شكلاً متميزاً من المقاربات النقدية التي أرسى أسسها رولان بارت في الخطاب النقدي الفرنسي. وتتميز هذه المقاربة وتختلف عن مثيلاتها بأنَّها تغذّي وتتغذى من حقول معرفية مختلفة، إذ بإمكانها أن تقدم خدمات لبعض العلوم الأخرى كالتاريخ والفلسفة وعلم الأقوام وغيرها. ويعوّل بارت على هذا العلم في "تقديم يد المعونة لجميع الأبحاث، (..) وتؤدي دورها في جميع المعارف كما هو شأن الدليل في كل خطاب"[١]. ولم يكتف بارت بإيلاج السيميولوجيا في الحقل الأدبي، وإنما تعدّى ذلك إلى دخولها الثقافة الشعبية فتناول بالدرس مظاهر ثقافية عديدة: الموضة، المصارعة، الإعلان، الطعام، الأثاث .. وغير ذلك من المظاهر المختلفة التي تجد في السيميولوجيا حقلاً خصباً تُقرأ على ضوئه. ومن هنا كانت مقاربة بارت أقرب إلى الدراسات الثقافية التي شاعت فيما بعد في الثقافة الأنكلو-أمريكية.

ورغم أن بارت أضحى معروفاً للقارئ العربي، فإن إسهاماته السيميولوجية ما زالت غير واضحة تماماً في الذهن، وانطلاقاً من ذلك ارتأت القراءة الحالية التصدي لهذا الجانب من فكر بارت النقدي للكشف عن النسق المفهومي الذي يحرّك القراءة السيميولوجية البارتية. وقبل ذلك لا بد من الإحاطة الموجزة بالمفهوم السيميولوجي عير سياقه التاريخي.

## ١- السيميولوجيا والسياق التاريخي

### ١-١ ماهية السيميولوجيا:

قبل البدء بالتتبع التاريخي لمفهوم السيميولوجيا، من جهة الظهور والتطور، لا بد من الإشارة إلى ماهيتها[٢]، فهي، مفهوم، انبثقت من الكلمة اليونانية sémeion بمعنى العلامة و logos بمعنى الخطاب أو العلم، وبذلك تصبح كلمة sémiologie علم العلامات أو علم الدلالة، كما يطلق عليه بالعربية السيميائية أو علم الإشارات. يوجه هذا العلم اهتمامه نحو دراسة مختلف أنواع العلامات اللسانية وغير اللسانية، أي أنه العلم الذي يروم دراسة العلامة بأنماطها المختلفة في حياة المجتمع، أو دراسة الشفرات أو الأنظمة التي تمنح قابلية الفهم للأحداث والأدلة بوصفها علامات دالة تحمل معنى ما.

### ١-٢ العلامة:

---

[١] - رولان بارط، درس السيميولوجيا، ترجمة ع. بنعبد العالي، دار توبقال، ط. ٣، ١٩٩٣، الدار البيضاء، ص. ٢٥.

[٢] - ينظر بهذا الشأن وعلى نحو معمق كتاب ما هي السيميولوجيا لـ برنار توسان، ترجمة محمد نظيف (وليس من تأليفه كما أوحى بذلك حين وضع اسمه على الغلاف دون الإشارة إلى أنه يترجمه عن الفرنسية)، أفريقيا الشرق، ط. ١، ١٩٩٤، الدار البيضاء.

تقع العلامة في مركز الدراسة السيميولوجية، وهي الشيء الذي يحيل إلى شيء ليس هو، أوهي البديل عن شيء أو فكرة، البديل الذي يجعل التلمس الرمزي لهذه الفكرة سهلاً، إنها شيء يعادل شيئاً آخر مختلفاً عنه يقوم مقامه وينوب عنه. وتكون العلامة أداة موظفة لمعرفة الأشياء، تنشأ بالتزامن مع هذه المعرفة ومع حدوث الصلة مع هذه الأشياء، ولها وظيفة أخرى تتمثل في كونها أداة التعامل مع العالم ومع الآخرين أيضاً. وهناك مسافة في العلامة بين الشيء ورمزه، فالبرتقالة التي ترمز إلى الكرة الأرضية ليست الأرض ولا الأرض برتقالة. السيميولوجيا، إذن، هي علم العلامات الذي يهتم بالبنى الاجتماعية والأيديولوجيات والاقتصاد والتحليل النفسي والأدب وغيرها من مجالات الحياة المختلفة. وبهذا يتوسع مجالها إلى أقصى حد، وربما تحرم نفسها من التخصص بموضوع هو مادتها الأساسية، فكما هو واضح العلامة منتشرة في كل مكان وفي كل مجال من مجالات الحياة. وللعلامة نوعان: لساني مجاله في اللغة، وغير لساني يظهر في الشم والذوق واللمس والإيماء والصوت واللباس والطعام وإشارات المرور والطرق وأحوال الطقس والأنظمة العسكرية وفي الآلة أيضاً، وغيرها.

## ١-٣ ولادة السيميولوجيا:

إن الاهتمام السيميولوجي قديم في الحياة البشرية، فقد بدأ مع إدراك الإنسان الأولي للمحيط الذي يعيش فيه ورغبته في التواصل مع مفردات هذا المحيط الخاصة والعامة. أما علم السيميولوجيا فحديث نسبياً ولم يحصل على شهادة ميلاده إلا بعد مضي عقود من الزمن على بداية التنظير له، فقد تنبأ سوسور بنشوء علم السيميولوجيا فيما بعد محدثاً نقلة في مسار الدراسات الأدبية، إذ جاءت السيميولوجيا لإعادة الاعتبار إلى "معنى الدلالة" في النص، ومنحت القراءة النقدية آفاقاً شاسعة من التطور والاحتمالات المستقبلية الممكنة. وإذا التفتنا إلى السياق التاريخي لانبثاق هذا العلم بوصفه مفهوماً وجدنا أن السيميولوجيا أو السيميوطيقيا تحيل على أعمال رائدين هما عالم اللغويات السويسري فرديناند دو سوسور (١٨٥٧-١٩١٣)، والمنطقي الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس (١٨٣٨-١٩١٤). كما ساعد انتشار الأبحاث اللسانية والتيار البنيوي، اللذين سادا الساحة النقدية في فرنسا خاصة وأوروبا عامة خلال سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، في ازدياد الاهتمام بالسيميولوجيا التي تطورت "بهذا الاسم (..) في سنوات الخمسينيات، وقد ارتبط تطورها بالبنيوية واللسانيات"[٣]، وبرزت هويتها العلمية في الستينيات على يد مجموعة من المنظرين الذين أنعشوا أعمال هذين العلمين وأمثالهما وبدؤوا التنظير لمفهومات العلم الجديد وحدوده واتجاهاته وإرساء القواعد الرئيسية التي تحكم التواصل الإنساني في المجتمعات، ووصفوا الوظيفة التي يضطلع بها وهي دراسة العلامة وتحديد آليات عملها والعلاقة التي تقيمها مع المعرفة والأداء، وهذا دور طموح لأن إنجاز هذه المهمة يعني أن تكون السيميولوجيا "نظرية النظريات". وقد عرفت السيميولوجيا مجموعة من التصنيفات التي يحددها نوع الاهتمام بأحد عناصر الدلالة: فإذا توجه الاهتمام نحو الممارسات الأكثر عادية وتكراراً في الحياة اليومية كانت السيميولوجيا تواصلية، وعندما يقتصر على المعنى ومرجعياته الواقعية فالسيميولوجيا تتحول إلى ما يعرف بالسيمانتيك sémantique أو علم المعاني، ولو جاء الاهتمام منصباً على ما تؤديه العلامة إلى المستخدم لكانت السيميولوجيا دلالية، أما النظر إلى الوظيفة القرائية فسيمنح السيميولوجيا توجهاً نحو التأويل، وهناك أخيراً سيميولوجيا تهتم بالشعرية (تركز على منتج العلامات) وأخرى بالجمالية (تركز على استقبال العلامات). لكن الوقوف عند غاية هذا العلم يشير بوضوح إلى القضية الأهم التي تسعى السيميولوجيا إلى إبرازها وهي المعنى وكيفية توظيفه في مجالات محسوسة.

## ١-٤ سيميولوجيا أو سيميوتيك أو سيمانتيك:

[٣]- J. Gardes-Tamine et M.-C. Hubert, Dictionnaire de critique littéraire, Armond Colin, 1996, Paris, p. 194.

ليس ثمة وثيقة أو إشارة تؤكد لقاء أو اطلاع أحد المؤسسين على أعمال الآخر، ومن هنا يمكن أن نفسر الاختلاف في التسمية، فقد أطلق سوسور على هذا العلم اسم السيميولوجيا، وجعل اللسانيات اللغوية جزءاً منه، يقول في كتابه محاضرات في الألسنية العامة، الذي صدر بعيد وفاته: "يمكننا إذن تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكل جانباً من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام. إننا ندعوه بـ (الأعراضية) sémiologie تلك التي تدلنا على كنه وماهية العلامات والقوانين التي تنظمها،(..). إن مكانتها محددة قبلياً، وما الألسنة إلا جزءٌ من هذا العلم العام، ولعله من الممكن تطبيق القوانين التي ستكونها الأعراضية على الألسنة، وهكذا ترتبط هذه الأخيرة بمجال محدد بدقة في مجموعة الوقائع البشرية"[٤]. أما بيرس فقد أطلق على هذا العلم اسم السيميوطيقيا semiotic وشاع في الخطابات المنجزة باللغة الإنكليزية. يرى بيرس أنّ السيميوتيك يتكون من أربعة عناصر وهي (العلامة، الشيء، المحلل، الطريقة). وفي كل عملية سيميولوجية علاقة مقارنية ثلاثية (العلامة كقيمة وكحسية وكقانون). وتؤدى العملية السيميولوجية باستخدام ثلاثة أنواع من الأدلة: (الرمز والدليل والأيقونة). وهذه الثلاثية الأخيرة هي الأهم في فكر بيرس، فالرمز يقابل العلامة بأبعادها الثلاثة عند سوسور وارتباطها بالمرجع تعسفياً أو عرفياً أو توافقياً، والدليل يعني اقترانه بما يدل عليه (كأعراض مرضية تشير إلى نوع المرض أو الدخان مع النار أو السحاب مع المطر)، والأيقونة التي تعني قيام تشابه بين الدليل وما يمثله (كالصورة أو الرسم أو النحت). والدلالة عند بيرس ثلاثية دائماً لأن الرمز ممثل أساسي يدل على شيء ما ويحيل على موضوع معين يمثله الدليل ويتم استقباله وترجمته عبر المؤول الذي يستقبل هذا الرمز ويربط بين الدليل والموضوع.

وفي صدد التسميتين يقول د.محمد عناني: "فالسيميولوجيا أكثر شيوعاً (...) في الكتابات الفرنسية، والسيميوطيقيا أكثر شيوعاً، بل هي السائدة الآن (وحدها تقريباً) في كل ما يكتب بالإنجليزية. وربما كان تفضيل كتّاب الفرنسية للسيميولوجيا راجعاً إلى استخدام سوسير لها، وربما كان تفضيل كتّاب الإنجليزية للسيميوطيقيا راجعاً إلى استخدام جون لوك لها (١٦٣٢-١٧٠٤) أول الأمر عن طريق استعارتها مباشرةً من اليونانية"([٥]). وبناءً على ما سبق يتبين أن اللغة اليونانية كانت المصدر الأول في اشتقاق التسميتين الفرنسية والإنكليزية.

وإذا كانت التسميتان تعكسان مفهوماً واحداً مع اختلاف مصدر التسمية، فإن مفهوم السيمانتك sémantique يتميز بتخصصه في جانب المعنى الدلالي للكلمات وكأنه فرع من علم اللسانيات. بينما تحاول السيميولوجيا ومرادفتها أن تبحث في أنظمة تركيب العلامات لا فيما تعنيه هذه العلامات. الحقيقة أن الفرق شكلي أكثر منه عملي فقد انتهى الأمر بالسيمانتيك إلى الالتقاء بالحقل السيميولوجي.

بدوره، يتأرجح الخطاب النقدي العربي بين التسميتين تبعاً للمرجعية المعرفية التي ينطلق منها الناقد العربي في بنيانه لجهازه المفهوماتي خلال إجراءاته النقدية. وقد شاع في الخطاب النقدي العربي مصطلحات كثيرة مثل: علم الإشارة، علم العلامات، علم الأدلة، السيميائية ..إلخ، ويعدُّ المصطلح الأخير، السيميائية، من المصطلحات التي ترسخت في العقود الأخيرة، وهو يوحي بعلاقات خفية بالكلمة اليونانية التي تحيل إليها كلمة السيميولوجيا التي التزم بها بارت في بحوثه السيميولوجية، ويستخدمها البحث هنا.

## ١-٥ علاقة السيميولوجيا بالعلوم الأخرى:

---

[٤]- فردينان ده سوسور، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد نصر، دار نعمان للثقافة، ١٩٨٤، بيروت، ص.ص. ٢٧-٢٨.

[٥] - محمد عناني، السيميوطيقيا ضمن كتاب المصطلحات الأدبية الحديثة، دراسة ومعجم إنجليزي-عربي، بيروت مكتبة لبنان ناشرون، ط١، بيروت، ١٩٩٦،ص. ١٥٣.

تسعى السيميولوجيا لأن يكون لها مكان مشترك بين مجموعة من العلوم: الأنتروبولوجيا، علم الاجتماع، علم النفس الاجتماعي والاستقبالي، وبصورة أوسع العلوم الإدراكية والفلسفية وخاصة أصولها المعرفية، واللسانيات ومجالات التواصل. وتزعم أنها قابلة للتطبيق على موضوعات أخرى متنوعة كعلم الفضاء، وتشخيص الأعراض والحقوق والأحوال الجوية والموضة واللسان وغيرها. ولكن هل يستطيع السيميائي أن يحيط بكل هذه الموضوعات معاً؟ بالتأكيد لا. المهم في الأمر هنا هو الأداة المنهجية التي يواجه بها نصه أو الحالة التي يعالجها، إذ من غير الممكن أن يكون عالم نفس وإناسة وطبيباً وقانونياً ولغوياً في وقت واحد. لكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما هو القاسم المشترك بين هذه المجالات المتباينة؟ ألا يشوش هذا الامتداد صورة السيميولوجيا؟ الحقيقة أن الدلالة هي العامل المشترك بينها، وهي التي تخلق حالة من الحوارية والانتظام فيما بينها، وترسم آلية بناء الأدوات التقنية التي تخص كلاً من هذه العلوم.

## ١-٦ اللسانيات والسيميولوجيا:

تُعدّ السيميولوجيا السوسورية الفضاء الشرعي الذي انبثقت فيه سيميولوجيا بارت، لأنّها المرجعية الرئيسية التي اعتمدها الناقد، وخاصة في استثماره الثنائيات السوسورية المعروفة لتأسيس مفهوم القراءة لديه. غير أن بارت قلب فكرة سوسور حول علاقة اللسانيات بالسيميولوجيا، فبينما جعل سوسور الألسنية جزءاً من علم العلامات، أعاد بارت النظر في هذه الأطروحة وقلبها فوسع من دائرة الألسنية ليصبح علم العلامات جزءاً منها([٦])، يقول بارت في هذا الصدد:"ورغم التقدم الكبير الذي أحرزته فكرة صوسير تلك فإن علم الأدلة يبحث عن ذاته بتؤدة. وربما كان السبب بسيطاً، فلقد اعتقد صوسير، الذي ردد الدلائليون الرئيسيون أفكاره ونقّحوها، أن اللسانيات ليست سوى قسم في علم الأدلة العام، إلا أنه من غير الأكيد قطعاً، أن تكون في الحياة المجتمعية المعاصرة أنظمة أدلة، غير اللغة البشرية، لما لهذه الأخيرة من سعة وأهمية"([٧]).

يعتمد بارت في فكرته هذه على قلة المجالات التي يغطيها علم الأدلة (السيميولوجيا) بالقياس إلى علم اللغة العام، فهو لا يكاد يحصي إلا القليل منها. والفكرة المهمة التي يعرضها بارت هنا وتبرز فطنته وذكاءه تتبين في نظرته إلى هذه المجالات بأنها ليست "سوى شفرات غير ذات أهمية كقانون السير مثلاً، إلا أنه بمجرد الانتقال إلى مجموعات لها عمق اجتماعي حقيقي نلتقي مرة أخرى باللغة. ومما لا مراء فيه أن الأشياء، والصور، والسلوكات قد تدل، بل تدل بغزارة، ولكن لا يمكنها أن تفعل ذلك بكيفية مستقلة. إذ إنّ كل نظام دلائلي يمتزج باللغة"([٨]). ويعلن صراحة "أننا اليوم، وأكثر من أي وقت مضى -بالرغم من اجتياح الصور لحياتنا، حضارة كتابة"([٩]). ويرى النقد الحديث أن هذه الصفة ملازمة للإنسانية، إذ لم تعد الأنا المفكرة أو الأنا القارئة هي السائدة بل أصبحت الأنا التي تكتب، "الأنا التي تنتج نصوصاً"([١٠])، أو بعبارة أدق، كما يقول شولز "أنا أنتج نصوصاً فأنا إذن، موجود، وإلى حد ما أنا النصوص التي أنتجها"([١١]).

---

[٦] - بينما نرى جاك ديريدا يدعو إلى قلب مقولة بارت ذاتها واعتماد "الكتابة بوصفها أثراً هي سمة الإشارة الكبرى، ولا بد من أن تكون الأصل الذي عنه تتفرع السيميوطيقيا واللسانيات" دليل الناقد الأدبي، ص.١٠٧.

[٧] - رولان بارت، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم محمد البكري، دار الحوار، ط. ٢، ١٩٨٧، اللاذقية، مدخل، ص. ٢٧-٢٨.

[٨] - المصدر السابق، ص. ٢٨.

[٩] - نفسه.

[١٠] - روبرت شولز، السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٤، بيروت، ص.٢٣.

[١١] - نفسه، ص. ٢٤.

وقد قامت نظرته هذه على رؤيته الأنظمة الاتصالية الأخرى (كالصور والأصوات والطقوس والعروض وغيرها) أنظمة مشابهة للنظام اللغوي -هذا إذا لم تكن كذلك بالفعل- وبأضعف الإيمان يراها أنظمة دلالية كاملة. ويمضي بارت قدماً في نقد أطروحة سوسور السابقة بصورة واضحة، حين يقول: "وبصفةٍ عامةٍ يجب، منذ الآن، تقبل إمكانية قلب الاقتراح الصوسيري. ليست اللسانيات جزءاً، ولو مفضلاً، من علم الأدلة العام، ولكنّ الجزء هو علم الأدلة، باعتباره، فرعاً من اللسانيات. وبالضبط ذلك القسم الذي سيتحمل على عاتقه كبريات الوحدات الخطابية الدالة"([١٢]).

إن الأشياء الأخرى التي يعالجها علم الأدلة لا ترقى إلى مستوى مادة قمينة بتأسيس علم مستقل، لهذا يبقى هذا العلم ضمن إطار علم اللغة الذي يضم علم الدلالة لا العكس كما تصور سوسور ذات يوم. ويفسر بارت ذلك بقوله "ومما لا مراء فيه أن الأشياء والصور والسلوكات قد تدل بل وتدل بغزارة، لكن لا يمكنها أن تفعل ذلك بكيفية مستقلة. إذ إنّ كل نظام دلائلي يمتزج باللغة"([١٣]).

ومن الوجهة المنطقية يمكن النظر إلى اللسانيات بوصفها جزءاً من علم العلامات العام، فالعلامة اللغوية ليست سوى جزء بسيط من مجموع العلامات المختلفة والمتنوعة التي تقترب منها السيميولوجيا، فثمة أنماط أخرى من العلامات التي تكون أنظمة من التواصل مثل: العلامات الشمّية والعلامات اللمسية والذوقية والإشارية أو الإيمائية وكذلك العلامات الإيقونية، والعلامات السمعية والسمعية-البصرية (التلفزيون = حضارة الصورة)، غير أن هذه العلامات تلوذ بالصمت ما لم تغذها العلامة اللغوية بالكلام. فالعلامة الإيقونية لا تتحقق من مستوى الإمكان إلى مستوى الفعل إلا عبر اللغة، إذ تصبح الأخيرة الإطار العام للتوصيف. ويؤكد بارت أننا نعيش حضارة الكتابة رغم سيطرة الصورة على الحياة البشرية في العصر الحديث. وهذا إصرار على ربط الأنظمة الدلالية الأخرى باللغة. يعلن ذلك قائلاً: "وبصفة عامة يجب، منذ الآن، تقبل إمكانية قلب الاقتراح الصوسيري. ليست اللسانيات جزءاً، ولو منفصلاً، من علم الأدلة العام، ولكن الجزء هو علم الأدلة، باعتباره فرعاً من اللسانيات."([١٤]) غير أن بارت ينبه على أن السيميولوجيا ليست ملزمة بانصياع حرفي وتام للنموذج اللساني، مانحاً إياها فرصة الاحتفاظ بحيز من الاستقلالية والتميز، أي الاعتماد على اللسانيات دون خضوع مطلق. ومن مجموع ذلك تأتي قوة رأي بارت في قلبه أطروحة سوسور.

## ٢- عناصر السيميولوجيا البارتية

يعد كتاب عناصر السيميولوجيا (١٩٦٤) لبارت أول عمل يطمح إلى إخراج السيميولوجيا عن إطارها اللساني الذي عملت عليه منذ سوسور، وحلم هذا الأخير بتوسيعها لتشمل كل أنظمة الدلالة الأخرى، ولا يزال يعد حتى الوقت الراهن إنجيل المنهجية السيميولوجية. يتضمن الكتاب الخطوط الكبرى للسيميولوجيا التي يتبناها بارت، فيبدأ بتعريفها من منظوره الخاص معلناً أنها ليست علماً ولا غاية ولا مجالاً ولا مدرسة ولا حركة يربط نفسه بها، إنها –كما يجيب عن تساؤله ما هي السيميولوجيا؟- "مغامرة، أي ما يحدث لي (ما يأتيني من الدال)"([١٥]). وتتوزع مغامرته السيميولوجية على ثلاثة أزمنة: يوجه عمله في الزمن الأول (زمن الأمل والتطلع) نحو اللغة والخطاب الثقافي في كتابيه الكتابة في الدرجة صفر و أسطوريات اللذين يحفلان بتحليل عميق لموضوعة المعنى الذي علقت عليه البرجوازية مفهومها التاريخي للطبقة. وقد عدّ السيميولوجيا الأداة الوحيدة للنقد الأيديولوجي، إذ لا يمكن تحليل المحتوى إلا بواسطة وسائلها وأدواتها

[١٢] - مبادئ في علم الأدلة، ص. ٢٩.
[١٣] - نفسه، ص.٢٨.
[١٤] - المصدر السابق، ص.٢٩.
[١٥] - R. BARTHES, L'aventure sémiologique, Editions du Seuil, 1985, Paris, p. 10.

الإجرائية، فبدت له "بأفقها المستقبلي وبرنامجها وأدوارها منهجاً أساسياً للنقد الأيديولوجي"([١٦])، وهذا ما أوضحه في مقدمة كتابه أسطوريات. ويصف عمله في المرحلة التالية (١٩٥٧-١٩٦٣) بأنه علم أو على الأقل متصف بالعلمية، جهد فيها على "نقل التحليل السيميولوجي إلى موضوع دال بصورة راقية كألبسة الموضة (..) كما حاولت استقبال بعض عناصر السيميولوجيا في كتاب عناصر السيميولوجيا"([١٧]). ويعترف بارت أن عمله هذا اتسم بمتعة ممارسة التنظيم والترتيب أكثر مما حمل صفة العلمية أو العلم. أما الحقبة الثالثة، وتمتد من عمله مدخل إلى التحليل البنيوي للحكاية إلى كتابه التطبيقي S/Z، فقد خصصها للبحث في مفهوم النص واصفاً إياه بأنه ممارسة دالة وليس إنتاجاً جمالياً كما أنه عمل ولعب ومجموعة من الإشارات المتحولة وليس موضوعاً أو منظومة من العلامات المغلقة([١٨]).

ويظهر الكتاب الاستثمار الكبير لألسنية سوسور في تأسيس هذه السيميولوجيا، وعلى الخصوص الثنائيات السسوسورية، يقول بارت: "سنجمع، إذن، هذه العناصر الدلائلية [السيميولوجية] بأربعة عناوين كبرى نابعة عن اللسانيات البنيوية: أ. اللسان والكلام؛ ب. المدلول والدال؛ ج. المركبّ والنظام؛ د. التقرير والإيحاء"([١٩]). وتكون هذه الثنائيات أربعة العناصر سيميولوجيا بارت، وإليها يتوجه البحث فيما يلي من المناقشة.

## ٢-١ اللغة والكلام

من المعروف أن هذه الثنائية، ثنائية اللغة والكلام تكون إحدى الثنائيات الأكثر قوة في لسانيات سوسور، فقد فرّق سوسور بين اللغة من حيث هي مجموعة الأنظمة والقواعد التي تمتلكها جماعة بشرية في تواصلها وتخاطبها وبين الكلام الذي يشكل التجلي التطبيقي لهذه الأنظمة والقواعد. ويركز سوسور على العلاقة الضرورية بين اللغة والكلام (اللذين يشكلان اللسان) قائلاً: "ومن غير شك في أنّ هذين الغرضين [اللغة والكلام] مرتبطان متلازمان ارتباطاً وثيقاً، ويفترض الواحد منهما الآخر: إن اللغة ضرورية حتى يصبح الكلام مفهوماً واضحاً مؤثراً كل التأثير، غير أنه لازم لتأسيسها (...) إن اللغة في وقت واحد هي إنتاج للكلام ووسيلة له. ولكن هذا لا يمنع من أنهما شيئان متميزان كلياً الواحد عن الآخر"([٢٠]). وهكذا فالعلاقة بين اللغة والكلام هي علاقة جدلية، فالكلام لا يتحقق إلا باللغة، أي باستثمار القواعد التجريدية الكامنة في بنية الدماغ، واللغة لا أهمية لها إن لم يستخدمها أفراد يعرفونها. إذن تغدو اللغة بنية عامة، في حين يغدو الكلام بنية خاصة. وتأسيساً على هذا المفهوم انطلق بارت في تحليله الظواهر الاجتماعية–الثقافية، مؤكداً أهمية الثنائية اللسانية: اللغة/الكلام، لكنه مدها لتشمل أنظمة الدلالة كلها وحافظ على المصطلحين لقناعته بعدم وجود مصطلحين أكثر ملاءمة منهما للتحليل السيميولوجي في مجالات غير لسانية.

وقام بارت بتطبيق هذه الثنائية على ظاهرة اللباس والطعام والأثاث ..الخ، فعلى سبيل المثال نجد من حيث الطعام أن اللغة تتكون من قواعد الإقصاء (ما هو خارج الأطعمة) والتعارضات (مالح/حلو) وقواعد الجمع والتأليف بين المواد الداخلة في صنع الأطعمة، أما الكلام الغذائي فيتمثل في اختيار أنواع من الأطعمة دون أخرى تتميز بطريقة صنعها أو بأسلوب تحضيرها، فلائحة الأطعمة التي تقدم في المطاعم تمثل لنا نموذجاً واضحاً للعلاقة بين اللغة والكلام لأن كل لائحة مصممة بناء على "تركيبة (وطنية أو إقليمية أو اجتماعية).

---

[١٦] - Ibid., p. 11.

[١٧] - Ibid.

[١٨] - ينظر : L'aventure sémiologique, p. 13.

[١٩] - مبادئ في علم الأدلة، ص. ٣١.

[٢٠] - محاضرات في الألسنية العامة، ص. ٣٢.

لكن يتم ملء هذه التركيبة كل يوم بصورة مختلفة وفق الأيام ورغبات الناس، مثلما يحدث بالضبط عند ملء صيغة لسانية ما بتنويعات حرة وتركيبات يحتاج إليها متكلم لبثّ رسالة خاصة"([٢١]).

لكن بارت لا يخفي حذره من مشكلات تتعلق بتطبيقات هذه الثنائية. ولهذا يتحدث عن تعديل النموذج السوسوري في الإجراء: "لا يتم التوسع السيميولوجي لثنائية اللغة/الكلام دون خلق بعض المشكلات التي تتقاطع بوضوح مع النقاط التي لا يمكن فيها استخدام النموذج اللساني، مما يتطلب تعديله"([٢٢]). ويتوقف بارت عند الجوانب التي تحتفظ فيها النماذج الأخرى بمسافة خاصة تفصلها عن النموذج اللساني، منها على سبيل المثال مدى مرونة الجدلية بين اللغة والكلام وإسهام المستعملين في إنجاز اللغة (فهم في اللسان والسيارات والموضة مثلاً فئة قليلة، بينما يزداد عددهم بدرجة كبيرة في أنظمة دلالة عادية كالخياطة والتأثيث المنزلي) وعدد المستخدمين للكلام كثرة أو قلة؛ ومنها العلاقة التي تربط بين اتساع اللغة وبين الإمكانات غير المحددة للكلام أيضاً ، إذ لا يقوم تناسب دقيق في ارتباطهما لأن الأولى تحدد بمجموعة من القواعد والأنظمة هي نماذج ينسج الثاني على منوالها عدداً لا نهائياً من التراكيب اللفظية أو الكتابية وهذه هي الحال في اللسان والطعام وغيرهما من الأنظمة المشابهة، في حين أن هناك أنظمة يكون الكلام فيها فقيراً جداً كما هي الحال في السيارات والأثاث؛ وهناك أنظمة أخرى يقتصر الكلام فيها على الشيء القليل مثلما نرى في الأزياء المكتوبة. والتعديل الذي يعرضه بارت لترميم نظرية سوسور في مجال الأنظمة الدلالية الأخرى يقوم على ثلاثية المادة واللسان والاستعمال، ويبرر موقفه بأن لتلك الأنظمة عموماً "أصلاً نفعياً، وليس أصلاً دالاً، بعكس اللغة البشرية"([٢٣]).

## ٢-٢ الدال و المدلول

تتكون العلامة في سيميولوجيا سوسور من دال ومدلول، وهذا ما يخص العلامة اللسانية على الخصوص. غير أنّ بارت يجد في العلاقة بين الدال والمدلول مفتاحاً جوهرياً للبحث السيميولوجي، ويؤكد في كتابه أسطوريات أن السيميولوجيا بحث في العلاقة بين الدال ومدلوله وهما من طبيعتين مخلفتين متقابلتين لا يتصفان بالمساواة أبداً. فالدال لن يكون المدلول مطلقاً. يتم في اللغة الجنوح نحو الجانب الشهواني منها عند توظيفها في الحقل الأدبي، لتكون قادرة على استيعاب تضخم الدال-المدلول وانحسار شأن المدلول المباشر الذي يضمحل تاركاً المجال أمام افتراق الدوال عن مدلولاتها فـ "تتوقف الألفاظ عن الالتصاق بمعانيها بسبب العمل الذي يخضعها له النص لتقسح –على هذا النحو- مكاناً لعبياً تصبح فيه ألعاب علامات وقراءات متعددة ممكنة. ولا يختزل معنى النص أبداً إلى المعنى الحرفي"([٢٤]). ويمكن تمثيل هذا التضخم بالمتوالية الآتية:

دال (د١) ← مدلول (مد١) = مد (٢) / مد (٢)/ مد (٢) ..الخ.

وكذلك يميّز بين العلامة اللسانية (الدليل اللساني) وبين العلامة السيمولوجية (الدليل السيميولوجي)، وإذا كانت العلامة اللسانية تقرن صورة سمعية أو كتابية (دال) بتصور أو مفهوم (مدلول) كوجهي الورقة، فإنّ الأمر مختلف للعلامة السيميولوجية، لأنها ليست قولية حصراً، ويمكن أن تكون في أشياء كثيرة كاللباس والسيارة والطعام والإيماءة والفيلم والموسيقى والإعلان والأثاث والعناوين الصحفية، ورغم أنها تبدو غير متجانسة إلا أن قاسماً مشتركاً يجمعها وهو "أنها جميعاً علامات"([٢٥]). يعترف بارت بأنّ العلامة

---

[٢١]- L'aventure sémiologique, p.31.

[٢٢]- Ibid. p.33.

[٢٣]- Ibid. p.36.

[٢٤] - فانسان جوف، رولان بارت والأدب، ترجمة محمد سويرتي، أفريقيا-الشرق، ١٩٩٤، الدار البيضاء، ص.٦٩.

[٢٥]- ينظر: *مطبخ المعنى* *La Cuisine du sens* في كتابه L'aventure sémiologique, p.227.

السيميولوجية تتكون كذلك من (دال ومدلول)، بيد أنّ دلالة العلامة السيميولوجية ترتبط بالاستعمال وفي سياق محدد. يقول في هذا الصدد: "تتكون العلامة السيميولوجية بدورها، مثل نموذجها، من دال ومدلول (فلون الضوء في قانون السير، مثلاً، أمر يتعلق بالسير أو التوقف في قانون شارات المرور) لكنها تختلف عنها على مستوى الماهيات. في كثير من الأنظمة السيميولوجية (أشياء، إيماءات، صور) تكون ماهية التعبير مغايرة للدلالة: وهي، غالباً، أشياء للاستعمال حملها المجتمع غايات دلالية: فاللباس يقي الجسم ويغطيه، كما أنّ الطعام يخدم في مجال التغذية، ولكنهما يصلحان للدلالة على شئ ما أيضاً"([٢٦]). ثم يضيف بارت موضحاً أنّ السياق الاستعمالي والوظائفي للعلامة يجعلها تتشبع بالدلالة، ويقترح تسميتها بالوظائف الدلالية fonctions-signes التي تحمل معنى محدداً لها في وجه أول ثم تتجه نحو اكتساب معانيها الدلالية (الوجه الثاني) وذلك بتأثير المجتمع الذي يحول "كلّ استخدام إلى دليل على هذا الاستخدام"([٢٧]).

وتوضيحاً لما سبق، يمكننا القول إنّ العلامة السيميولوجية سواء أكانت لغوية أم غير لغوية مرهونة باستعمالها أي: بالبعد الوظائفي. وهكذا تمتلك دلالتها الإضافية أو الخاصة من استعمالها، فعلى سبيل المثال "يهدف ارتداء معطف مطري إلى الوقاية من المطر [المرحلة الأولى]، لكن هذا الاستخدام لا ينفصل أبداً عن أنه دليل حالةٍ مناخية معينة"([٢٨])، أي أن الدال والمدلول للعلامة السيميولوجية لا يرتبطان وينتجان الدلالة إلا في سياق محدد، فالمعطف كعلامة سيميولوجية لا أهمية له إلا في وقت محدد.

## ٢-٣ المركب و النظام

لهذه الثنائية دور كبير في تفسير كثير من القضايا اللغوية والسيميولوجية، وتقوم في اللسانيات على أنّ اللغة في إنتاجها للكلام إنما تخضع لنوعين من العلاقات يطلق سوسور على النوع الأول "العلاقات التركيبية: "وفي الخطاب، تقيم الكلمات ضمن تعاقدها فيما بينها، علاقات مبنية على صفة اللغة الخطية تلك التي تستثنى إمكانية لفظ عنصرين في آن (...) وهذان العنصران إنما يقع الواحد منهما إلى جانب الآخر ضمن السلسلة الكلامية، ويمكن تسمية الأنساق التي يكون المدى سنداً لها تراكيب"([٢٩]) . وهكذا يهيمن التزامن على العلاقات التركيبية، فالمركبات اللغوية تتوالى وراء بعضها، ويتكون المعنى من العلاقة البنيوية التي تقيمها الكلمة في إطار السلسلة الكلامية مع الكلمات الأخرى. أما النوع الثاني فيسمى، وفق سوسور، بالعلاقات الترابطية أو النظامية، يقول في شأنها: "ومن جهة أخرى، تتسم الكلمات -خارج الخطاب- بشيء مشترك، وتترابط في الذاكرة مشكلة مجموعات تسودها علاقات مختلفة"([٣٠])، فعلى سبيل المثال كلمة "كتب" تجرُّ وراءها طائفة من الكلمات المشتقة من الجذر نفسه (كاتب، يكتب، مكتوب، مكتب ..الخ) أو المرادفة لها في المعنى مثل (خطّ، نقش ..الخ) أو حتى المتضادة معها (محا، مسح ..الخ). وينظر سوسور إلى هذه الكلمات بوصفها من صنف آخر "وتختلف تماماً عن الأولى فليس المدى سنداً لها، وموضعها إنما هو الدماغ، وهي جزء من هذا الكنز الداخلي الذي يشكل اللغة عند كل فرد، إننا سندعوها بالعلاقات الترابطية"([٣١]). وبناءً على ما تقدم يمكننا القول: إنّ النوع الأول يضفي على العلاقات اللغوية صفة الحضورية، ويتميز الثاني بصفة الغيابية. غير أنّ الحضور لا يمكن له أن ينتج الدلالة إلا في حضور الكلمات الغائبة كتابة فقط، إذ إنّها تكون برسم الحضور المؤجل دائماً.

---

[٢٦]- Ibid. p.40.
[٢٧]- Ibid. p. 41.
[٢٨]- Ibid. p.41.

[٢٩] -محاضرات في الألسنية العامة، ص. ١٤٩.
[٣٠]- نفسه.
[٣١]- نفسه، ص. ١٥٠.

يحدد بارت في توظيفيه لهذه الثنائية طرفين أساسيين: المركّب والنظام. ويتتبع تطورهما في اللسانيات الحديثة فيرى أن "الروابط التركيبية syntagmatiques" تسمى عند هيلمسليف علاقات relations ويطلق عليها جاكبسون اسم التجاور contiguïtés ويصفها مارتينيه بصلات contrastes، أما روابط النظام systématiques" فترابطات corrélations عند الأول وتماثلات عند الثاني وتعارضات عند الأخير([٣٢]). وبارت نفسه يستخدم مفهومي: المركبي والنظامي للتدليل على هذين النوعين من العلاقات اللغوية. وفي الواقع تكشف قراءة كتاب بارت عناصر السيميولوجيا أن هذا السيميولوجي الفرنسي قد تتبع التطورات التي حصلت في مفهومي سوسور هذين، وخاصة العمل الذي قام به رومان جاكبسون، حينما وظّفهما لإعادة النظر في تعريف الاستعارة والمجاز المرسل (الكناية). توصل جاكبسون إلى أن الكناية ناتجة عن تجاوز الكلمات على المحور المركبي، في حين أن الاستعارة تقوم على عمليات الاستبدال أي تشتغل على صعيد النظام. وفي هذا الإطار يسجل بارت الملاحظة التالية: "يعلن انفتاح جاكبسون على الخطابات التي تسيطر عليها الاستعارة أو المجاز المرسل فتح مجال العبور من اللسانيات إلى السيميولوجيا"([٣٣]).

ولهذا يرى بارت ضرورة حضور هذين المستويين المحوريين في النظام اللغوي ضمن الأنظمة الدلالية الأخرى غير اللغوية. وهذا يعني أن البحث عن الدلالة أو المعنى في أشياء العالم يمر عبر مستويي اللغة: المركب والنظام. ويطبق بارت هذين الحدين على أربعة مظاهر ثقافية هي: اللباس والطعام والأثاث والمعمار. ويوضح الجدول التالي([٣٤]) نموذجين منها:

| | النظام | المركب |
|---|---|---|
| اللباس | نوع من القطع مجموعة أو مفرقة لا يمكن ارتداؤها مع بعضها في وقت واحد على موقع واحد من الجسم، غير أن تبديلها يعني تبديلاً ضمن الفئة الواحدة: طاقية/رأسية([*])/قلنسوة ...الخ | تجاور بين عناصر مختلفة للباس متكامل: تنورة – "بلوزة" – سترة. |
| الطعام | مجموعة أطعمة معدّة ومتغايرة نختار منها وجبة وفق مقتضيات معينة: كالتنويع في المقبلات واللحم أو الحلويات (Dessert). | سلسلة حقيقية من الأطباق المختارة في الوجبة: هذه لائحة الطعام (menu[35]). |

يعكس جدول بارت الماثل أمامنا إلى حد بعيد تحكم القوانين البنيوية الصارمة في السيميولوجيا، وبالتالي ربما تحد هذه النمذجة من حرية البحث السيميولوجي. إن سيميائية رولان بارت محاولة لنقل القوانين البنيوية إلى مجال الحياة الاجتماعية "إذ يمكنك أن تنظر إلى أسطورة، أو مباراة مصارعة، أو نظام قرابة قَبَلية، أو قائمة بألوان الطعام في مطعم أو لوحة زيتية باعتبارها نظام أدلة"([٣٦]). وليست سيميولوجيا بارت

---

[٣٢] - ينظر: L'aventure sémiologique, p.54.

[٣٣] - Ibid. p.55.

[٣٤] - ينظر: L'aventure sémiologique, p56.

[*] - رأسية: غطاء للرأس يغطي الرأس والكتفين ويقيهما، كما يمكن أن يكون قبعة نسائية صيفية عريضة الحواف.

[٣٥] - تحوي قائمة الطعام التي تقدم في المطاعم المستويين: النظام والمركب: فالقراءة الأفقية في أنواع قسم واحد من أقسام الوجبة هي قراءة في النظام، والقراءة العامودية التي تختار من كل قسم صنفاً لتكون بمجموعها الوجبة الكاملة قراءة على مستوى المركب.

[٣٦] - تيري إيغلتون، نظرية الأدب، ترجمة ثائر ديب، وزارة الثقافة، ١٩٩٥، دمشق، ص. ١٧٠.

وحدها التي تستند إلى البنيوية، بل إن السيميولوجيا عموماً تعتمد على البنيوية وخاصة في بحثها عن القوانين التي تنظّم الدلالة، فالتحليل البنيوي "يتجاهل إلى حدٍ بعيدٍ ما (تقوله) الأدلة فعلياً، ويركز بدلاً من ذلك على علاقاتها الداخلية مع بعضها البعض"([٣٧]). أي أن السيميولوجيا تتنكر أيضاً للسياق التاريخي الذي أنتج الأدلة نفسها. ويقوم التشابه بين الحقلين على أرضية مشتركة تجمعهما إلى درجة أن الحدود الفاصلة بينهما تصبح غير واضحة تماماً أو أنها لا تبرز إلا في زوايا ضيقة. ولعل أهم ما يميز السيميولوجيا من البنيوية أنها تتعامل مع أنظمة دلالية ثقافية أقرها مجتمع ما وتوافق عليها، بينما قد تخرج البنيوية إلى حدود دراسة أنظمة علامية أخرى "فتدرس العلامة سواء أكانت جزءاً من نظام أقرته الثقافة كنظام أم لم تقره"([٣٨]).

## ٢-٤ التقرير والإيحاء

تتناول هذه الثنائية الدلالة التقريرية التحديدية الدلالة الإيحائية التضمينية التي يتميز بها النصّ الأدبي في علاقته مع المتلقي. ويبدو أن فكرة هذه الثنائية قد اقتبسها رولان بارت من اللساني الدانمراكي لوي هيلمسليف الذي نقل أفكار سوسير عن العلامة اللغوية إلى إطار أوسع وذلك باستبدال مفهومي: الدال والمدلول بمستويي التعبير Expression والمضمون contenu إذ يرى هيلمسليف "أنّ مستوى التعبير يشكل جانب اللغة الخارجي، ونعني به الغلاف الصوتي، أو الخطي أو الحركي، وبكلمة، إنه غلاف آخر للفكرة التي يجسدها. أمّا مستوى المضمون فهو يوحي بعالم الفكرة التي تحتضنها اللغة تعبيراً"([٣٩]). وبالتمعن في هذه الفكرة التي قدّمها هيلمسليف يمكننا وضع الترسيمة الآتية:

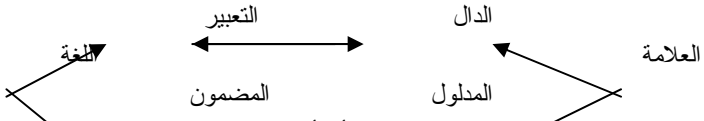


وإضافة هيلمسليف Hjelmslev تكمن في أنه أشار إلى وجود المادة والشكل في كل من هذين المستويين، وبذلك يتمتع مستوى التعبير بامتلاكه "مادته الصوتية أو الكتابية، (...) ولهذا فإن شكل التعبير أو طريقة استخدامه في لغةٍ محدّدة يتموضع على هذه المادة ذاتها التي ينبثق منها التعبير"([٤٠]). وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمضمون الذي يتوافر على مادة وشكل: "فمادة هذا المضمون تتجسّد في كل ما يقوى على أن يكون غرضاً للفكر، أمّا شكله فلن يكون أكثر من طريقة تنضيد الأفكار وتنسيقها في لغةٍ ما"([٤١])، وعلى هذا الأساس فبقدر ما يتمتع التعبير بالدلالة ينال المضمون حصته من ذلك. يتلقف رولان بارت هذه الفكرة–النواة ويذهب بها بعيداً حين يقارن بين اللغة الأدبية واللغة العادية، فهو ينظر إلى العلامة الدالة تملك وجه الدال أو العبارة (ع) ووجه المدلول أو المضمون (م) وبين الوجهين علاقة رابطة (ق) تربط بين مستوى العبارة (ع) ومستوى المضمون (م) أي (ع.ق.م)، لكن هذا النظام السيميائي الأول قد يصبح مجرد دال (ع) في نظام تعبيري ثان يشكّل امتداداً وتوسعاً للأول([٤٢]):

---

[٣٧] - نفسه.

[٣٨] - ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط. ٢، ٢٠٠٠، بيروت- الدار البيضاء، ص. ١٠٨.

[٣٩] -يوسف غازي، مدخل إلى الألسنية، مذكور، ص٢٧٥، ثمة عرض مكثف لأفكار هيلمسليف استفادت منها القراءة.

[٤٠] -المرجع نفسه، ص٢٧٥.

[٤١] -المرجع نفسه، ص٢٧٦.

[٤٢] -ينظر:

تتناول هذه الثنائية الدلالة التقريرية التحديدية والدلالة الإيحائية التضمينية التي يتميز بها النص الأدبي في علاقته السيميولوجية مع القارئ المتلقي. ويبدو أنها فكرة اقتبسها رولان بارت من اللساني الدانماركي لوي هيلمسليف. ويوضح رولان بارت هذه الثنائية معتبراً العلامة الدالة لها وجه الدال أو العبارة (ع) ووجه المدلول أو المضمون (م) وبين الوجهين علاقة رابطة (ق) هي الدلالة التي تربط بينهما أي (ع.ق.م.). وقد تصبح هذه الدلالة مجرد دال (ع) في نظام تعبيري ثان يشكل امتداداً وتوسعاً للأول ([٤٣]):

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢ | ع | ق | م |
| ١ | ع ق م | | |

أو ع (ع.ق.م.) ق. م. وهذا ما يطلق عليه هيلمسليف الدلالة الإيحائية. إنهما نظامان متداخلان ومتشابكان، لكنهما يتمتعان بانفصال نسبي يتأرجح قرباً وبعداً وفق طبيعة العلاقة القائمة وتطويرها في المجتمعات المنتجة للدلالة، يطلق على الأول النظام التعبيري المباشر ويحظى الثاني بصفة النظام الإيحائي التضميني. وهو ما يتجسد في الخطاب الأدبي الذي ينتج الدلالة الإيحائية. وهذه الحالة الثانية تجسد النظام السيميولوجي بامتياز. ولتوضيح خطاطة رولان بارت، نقدّم مثالاً من البلاغة العربية: "كثير الرماد".

من الوجهة السيميائية يعدُّ هذا التركيب رسالة تامة تتمفصل في علاقتها بالقارئ على نظامين سيميائيين: أمّا النظام الأول فيتكون وفق هيلمسليف أو بارت من صعيدين: صعيد العبارة (ع) وصعيد المحتوي (م)، ويتمثّل صعيد التعبير في هذا التركيب من جملة المادة الصوتية والعلاقات التركيبة للجملة، أمّا صعيد المحتوي فيشير إلى المعنى الحرفي لكلمتي كثير و رماد. فهذا النظام السيميائي الأول يسعى إلى أن يكون تسجيلاً لظاهرة مادية وهي كون هذا الرجل أو ذاك يمارس حرق الحطب الأمر الذي يترتب عليه "كثرة الرماد"، وبالتالي يضطلع النظام السيميائي الأول بحقيقة تقريرية.

أمّا النظام السيميائي الثاني فيتمثّل بتحول النظام الأول بأكمله إلى دال ثان، فالرسالة الأولى، المكونة من اجتماع دوال ومدلولات، تغدو دالاً لرسالة ثانية. وعليه فالمثال المشار إليه (كثرة الرماد) سرعان ما يتحول إلى دال جديد ويقودنا إلى مدلول جديد وهو الكناية عن الكرم وعلى هذا الأساس يمكن تقديم الخطاطة الآتية:

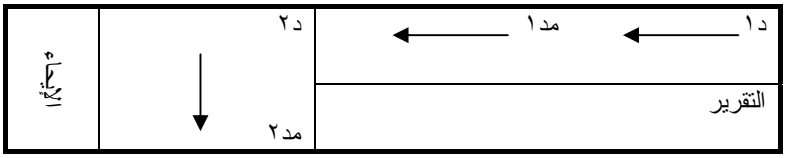


ويمكن أن نفسر رموز الخطاطة بالقول: إن الدال (د١) يحيلنا على (مد١) وفق النظام السيميائي الأول، لكن سرعان ما يتحوّل النظام السيميائي الأول (د١ - مد١) إلى (د٢) أي إلى النظام السيميائي الثاني الذي لا يتوقف عن التناسل إلى أنظمة سيميائية أخرى وهذا التفريع السيميائي يجد مبرره في اللغة الأدبية. وتمثل الخطاطة التالية حول نوع من أنواع السجائر الفرنسية النموذج البارتي المطور عن نموذج هيلمسليف:

[٤٣] - ينظر : L'aventure sémiologique, p.77.

| | | |
|---|---|---|
| علامة ← | إشارة ← | رمز |
| Signe | Signal | Symbole |
| أخضر ← | نعناع ← | برودة (نضارة، طراوة) |
| دال التعيين (د١) | مدلول التعيين (مد٢) | مدلول التضمين (مد٢) |
| دال التضمين (د٢) | | |

ونلاحظ هنا كيف عدّل بارت مفهومات هيلمسليف (تعبيراً ومضموناً) واعتمد مصطلحات خاصة به (علامة وإشارة ورمزاً)، ومنحها دلالات ناتجة عن تحليله العميق والدقيق لمفهوم الدلالة، وإن كانت ترجع إلى الثنائية السوسورية (دال ومدلول).

تتناول هذه الثنائية الدلالة التقريرية التحديدية والدلالة الإيحائية التضمينية التي يتميز بها النص الأدبي في علاقته السيميولوجية مع القارئ المتلقي. ويبدو أنها فكرة اقتبسها رولان بارت من اللساني الدانمراكي لوي هيلمسليف. ويوضح رولان بارت هذه الثنائية معتبراً العلامة الدالة لها وجه الدال أو العبارة (ع) ووجه المدلول أو المضمون (م) وبين الوجهين علاقة رابطة (ق) هي الدلالة التي تربط بينهما أي (ع.ق.م.). وقد تصبح هذه الدلالة مجرد دال (ع) في نظام تعبيري ثان يشكل امتداداً وتوسعاً للأول ([٤٤]):

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢ | ع | ق | م |
| ١ | ع ق م | | |

أو ع (ع.ق.م.) ق م وهذا ما يطلق عليه هيلمسليف الدلالة الإيحائية. إنهما نظامان متداخلان ومتشابكان، لكنهما يتمتعان بانفصال نسبي يتأرجح قرباً وبعداً وفق طبيعة العلاقة القائمة وتطويرها في المجتمعات المنتجة للدلالة، يطلق على الأول النظام التعبيري المباشر ويحظى الثاني بصفة النظام الإيحائي التضميني. وهو ما يتجسد في الخطاب الأدبي الذي ينتج الدلالة الإيحائية. وهذه الحالة الثانية تجسد النظام السيميولوجي بامتياز. وإذا أردنا أن نبسط فكرة رولان بارت عن طبيعة الدلالتين التقريرية والإيحائية، يمكن طرح الخطاطة الآتية:

| | | |
|---|---|---|
| د١ ← مد١ ← | د٢ | الإيحاء |
| التقرير | ↓ مد٢ | |

فالدّال (د١) يمنحنا مدلولاً أولياً (مد١) سرعان ما يوحي بمدلول ثان (مد٢) يوحي بالحالة الثانية أي بتحول د١ + مد١ إلى د٢. وتمثل الخطاطة التالية حول نوع من أنواع السجائر الفرنسية النموذج البارتي المطور عن نموذج هيلمسليف:

| | | |
|---|---|---|
| علامة ← | إشارة ← | رمز |
| Signe | Signal | Symbole |
| أخضر ← | نعناع ← | برودة (نضارة، طراوة) |
| دال التعيين (د١) | مدلول التعيين (مد٢) | مدلول التضمين (مد٢) |
| دال التضمين (د٢) | | |

[٤٤] - ينظر : L'aventure sémiologique, p.77.

ونلاحظ هنا كيف عدّل بارت مفهومات هيلمسليف (تعبير ومضمون) واعتمد مصطلحات خاصة به (علامة وإشارة ورمز)، ومنحها دلالات ناتجة عن تحليله العميق والدقيق لمفهوم الدلالة، وإن كانت ترجع إلى الثنائية السوسورية (دال ومدلول).

## ٣- الممارسة السيميولوجية البارتية

بعد أن استعرضنا العناصر المشكّلة للتنظير السيميولوجي البارتي سنحاول فيما سيأتي التعرف إلى الممارسة التطبيقية التي تجسدت في العديد من أعمال بارت وخاصة في المجال الثقافي العام كالأسطورة، والخاص كالأدب، وسنتوقف عند عمليه الشهيرين أسطوريات و S/Z لأنهما يمثلان هذين المجالين.

### ٣-١ الدلالة الأسطورية

يطبق بارت النظام الدلالي على نظام الأساطير المعاصر الذي يختلف عن معنى الأسطورة القديم، ويرى أن المظاهر الثقافية التي تقابل البشر كل يوم تخفي وراءها مجموعة من البنى الأسطورية الدلالية التي تعكس أفكار المجتمع أو الطبقة التي تنتج هذه المظاهر. يحدد بارت معنى الأسطورة بصورة بعيدة عن المألوف، فهي في مفهومه "كلام"([٤٥]) يقابل اللغة في الثنائية السوسورية، وهذا يعني أنها دال لا يتوقف عن إنتاج المدلولات والإيحاءات، أي أنها بتعبيره الخاص "صيغة من صيغ الدلالة، إنها شكل"([٤٦]). ونظراً إلى أن الأسطورة تتجلى في صورة دوال سواء أكانت مكتوبة أم مرئية، فإنه يمكن لأي شيء أن يكون أسطورة، وبذلك لا تخص الأسطورة بدايات تكوين المجتمعات البشرية، وإنما تمارس حضورها بصورة يومية في الحياة الإنسانية، لتكون رسالة مكتوبة أو منظورة أو مسموعة "فقد تتكون من كتابات أو من عروض: كالخطاب المكتوب، وكذلك الصورة الضوئية والسينما والريبورتاج والرياضة والعروض المسرحية والدعاية، كل هذا من شأنه أن يكوّن قاعدة للكلام الأسطوري"([٤٧]).

يعالج بارت الأساطير -كما في النظام اللغوي العام- وفق منظور ثلاثي يقوم على الدال والمدلول والعلامة الناشئة عن اجتماعهما. وتغدو العلامات الثقافية بدورها "بنية نظام أولي تفضي إلى بنية نظام ثانية"([٤٨])، وهذه البنية الثانية هي الأسطورة([٤٩])، ونجدها بأبعادها الثلاثة وفق الخطاطة الآتية:

| | | |
|---|---|---|
| لغة | ١-دال | ٢-مدلول |
| | ٣-علامة | |
| أسطورة | ١َ-دال | ٢َ- مدلول |
| | ٣َ- علامة | |

لا يخفى اعتماد بارت على النظرية السوسورية للعلامة في فهمه للأسطورة التي وجدها قائمة على ثلاثة مكونات: الكلام والرسالة ونظام الاتصال: "الأسطورة كالعلامة مؤلفة من دال ومدلول تجمعهما علاقة تؤسس الدلالة"([٥٠]).

---

[٤٥] - رولان بارت، أسطوريات، أساطير الحياة اليومية، ترجمة قاسم المقداد، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٦، حلب، ص.٢٤٧.

[٤٦] - المصدر السابق.

[٤٧]- نفسه، ص.٢٤٨.

[٤٨] - دليل الناقد الأدبي، ص. ١١٢.

[٤٩] - ينظر: F. EVRARD et E. TENET, Roland Barthes, Bertrand-Lacoste, 1994, Paris, p. 92.

[٥٠] - نفسه.

يشرح بارت نظامه الأسطوري هذا بمجموعة أمثلة منها باقة الورد التي يطلق عليها اسم علامة ناتجة عن اتحاد الدال والمدلول ومختلفة عن باقة الورد كدال أي بوصفها منتجاً زراعياً نباتياً. إنه يميز بين باقة الورد كدال وباقة الورد كعلامة مشبعة بالدلالة حملتها "نتيجة مزيج من القصد البشري وطبيعة المجتمع وصيغ أعرافه وتقاليده وسبل الاتصال"([٥١]).

المثال الثاني الذي نسوقه لإيضاح البنية الأسطورية المعاصرة في ذهن بارت هي صورة غلاف مجلة باري ماتش الفرنسية المخصصة لجندي فرنسي زنجي يرتدي الزي العسكري ويؤدي التحية العسكرية للعلم الفرنسي. في المستوى الأولي تعبر الصورة عن دال ينقل مدلولاً مباشراً هو "أن فرنسا إمبراطورية عظيمة، وأن أبناءها جميعاً، دون تمييز في ألوانهم، يخدمون بأمانة تحت رايتها، وأنه ليس هناك من جواب على المشنعين على الاستعمار المزعوم أفضل من حماسة هذا الأسود في خدمة مضطهديه المزعومين"([٥٢]). أما في المستوى الثاني (الأسطوري) فيتحول الدال والمدلول إلى دال ثان يطلق عليه بارت اسم الشكل، والمدلول الناتج في هذا المستوى يسميه المفهوم، ويسم العلاقة القائمة بينهما بالدلالة وهي تقوم مقام العلامة في المنظومة اللسانية.

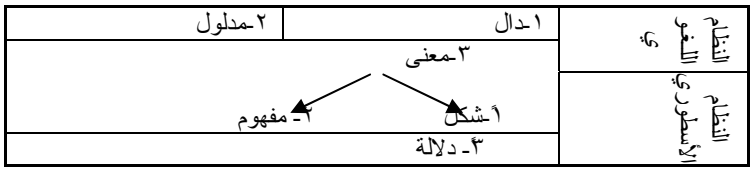


في هذا النظام الأسطوري يستطيع المرء أن يميز بين الدلالة الأولى والدلالة الأسطورية، فإذا كانت الأولى تثبت ولاء جميع أبناء الوطن وإخلاصهم له ودفاعهم عنه على اختلاف ألوانهم ومعتقداتهم، فإن الثانية تظهر الهيمنة الفرنسية و الجانب الاستعماري (الكولونيالي) لهذه الرمزية العسكرية الفرنسية.

غير أن الحديث عن الأسطورة لا يكتمل إلا برؤية شاملة لمظاهر الحياة العامة التي سطرها بارت ليؤكد صحة نظريته، فهو ينتقي أمثلته من المصارعة والسينما والمنظفات والطعام والنبيذ والدعاية وسباق الدراجات وغيرها من نماذج الحياة اليومية. ولا ضير في الوقوف عند نموذج ثالث يتعلق بالمصارعة لنستوضح وجهة نظره ومدى مطابقتها للأصول النظرية التي تبناها. في قراءته لـ"عالم المصارعة"([٥٣]) يقتبس بارت من بودلير جملة تنطبق على موضوعه تقول: "الحقيقة التفخيمية للحركة في ظروف الحياة الكبرى.." محاولاً بذلك تأكيد موضوعة الانحراف في الأسطورة. وللربط بين مشهدية المصارعة والأسطورة يستند بارت على مفهوم الانحراف (التفخيم هو نوع من الانحراف عن الحقيقة والواقع): "للمصارعة مزية أنها فرجة تنطوي على المبالغة. ففي مشهد المصارعة نرى تفخيماً جديراً بالمسرح القديم، ثم إن حفلة المصارعة تتم في الهواء الطلق"([٥٤]). إن ما يجعل المصارعة أسطورة مستمرة هو أنها تجنح نحو المبالغة، وتقيم علاقة تناصية بالمسرح القديم من خلال حلبة المصارعة التي تساوي منصة المسرح واشتراكهما بحضور الجمهور ..الخ. "هذه الوظيفة التفخيمية هي وظيفة المسرح القديم نفسها الذي تتعاضد فيه القوة مع اللغة والملحقات (الأقنعة، والخفوف المسرحية [خف كان يرتديه الممثلون قديماً]) من

[٥١] - دليل الناقد الأدبي، ص. ١١١.
[٥٢] - أسطوريات، ص. ٢٥٤-٢٥٥.
[٥٣] - نفسه، ص. ١٥ وما بعدها.
[٥٤] - المصدر السابق، ص. ١٥.

أجل تقديم تفسير تتضح المبالغة فيه، لضرورة معينة"([٥٥]). وبذلك تتحول المصارعة إلى مشهدية أسطورية، وبالتالي إلى علامة سيميولوجية تبدأ ببث انحرافاتها الدلالية. وهي بوصفها علامة تتوزع على محورين: دال وهو أجساد المصارعين، ومدلول هو المبالغات الجسدية للمصارعين. يشكل جسد المصارع المفتاح الأول للصراع، فهو، بوصفه دالاً، يبث مدلوله في سياق أسطورة المصارعة، ومن خلال الجسد والحركات يكوّن المشاهدون (المؤولون) المدلول المرتقب سلفاً من المصارع الدنيء، فعندما ينتصر الأخير فإنه "يعبر عن ذلك بتكشيرة وضيعة حينما يضع الرياضي الطيب تحت ركبتيه. وهنا يلقي إلى الجمهور بابتسامة كافية تعلن عن فوزه المرتقب، وهنا وحينما يكون متسمراً في الأرض، فإنه يخبطه بذراعيه أيضاً ليُفهم الجميع طبيعة موقفه"([٥٦]).

إن قراءة مقالة بارت (عالم المصارعة) توضح بصورة جلية توظيفه أمرين: توظيف مفهوم الانحراف والمبالغة في تحويل المصارعة إلى أسطورة، فإيقاعها يعني "التضخيم البلاغي" الذي يظهر واضحاً في النهايات. وتوظيف فكرة العلامة السيميولوجية في مشهد المصارعة بوصفها أسطورة، ولذلك درس بارت شكلها لا مضمونها أو موضوعها، أو درسها بوصفها منظومة اتصال.

## ٣ـ٢ نظم الترميز الكتابية

يعد كتاب بارت S/Z دراسة تطبيقية وتنظيرية في الوقت ذاته، ويتناول فيه بالدرس قصة قصيرة لبلزاك (سارازين) يعرض من خلالها، وبرؤية ثاقبة، المناهج الكلاسيكية في كتابة القصة. صحيح أن دراسته تفوق عدد كلمات القصة بمرات قد تصل إلى سبع، لكنه لا يفعل ذلك عبثاً، فهو يقسم القصة إلى /٥٦١/ وحدة قرائية تتراوح بين الكلمات القليلة والجمل القصيرة وأحياناً الطويلة. في القسم التنظيري نقف أمام نقطتين جوهريتين تسمان الكتاب: أولاهما تمييزه بين نص قابل للكتابة وآخر قابل للقراءة، "لا يمكن لتقويمنا أن يكون إلا معتمداً على ممارسة تطبيقية هي الكتابة، فمن جانب هناك ما يمكن كتابته وفي الآخر ما لا يمكن كتابته"([٥٧]) فالأول يورط القارئ بمفهوم إنتاجية النص، ليكون "ذلك النص الذي كتب بشكل يجعل قراءه منتجين بدلاً من مستهلكين"([٥٨]). أي أنه يثير لديهم فعل القراءة التفاعلية التي تجعلهم قادرين على إعادة إنتاج وكتابة لما يرغب القارئ في عدّه قيمة النص الحقيقية، كما أنه يحرره من السيطرة الأيديولوجية المسبقة التي توجه قراءته وحكمه. وينطبق الثاني على القصص الكلاسيكية التي تتفق على قواعد عامة مشتركة في بناء القصة، ويحمل النص القابل للقراءة قيمة سلبية "إنه ما يمكن أن يقرأ، دون أن يكون ممكن الكتابة: وهذا هو القابل للقراءة. ونطلق عليه سمة الكلاسيكي"([٥٩]). وفي الحالة هذه تكتفي القصة بتقديم قراءة لها دون أن تستثير ذهن القارئ بقراءات متعددة إذ ترمي إلى إيصال غرض ما أو البحث إلى هدف معين ولا تلوي على شيء خارج ذلك. ويبقى على الناقد أن يمحص جيداً في النص ليخلخله وينفذ من ثغراته بغرض تقديم تعددية –ولو محدودة- لمعانيه. النص القابل للقراءة هو "نص يجبر قارئه على تلق سلبي. وتعود إلى النقد مهمة الإفادة من أقل الثغرات البسيطة للوصول إلى التعددية التي يمكن أن تقدمها نصوص مشبعة بالمدلولات النفسية"([٦٠]).

---

[٥٥] - نفسه، ص. ١٦.

[٥٦] - نفسه، ص. ١٨.

[٥٧]- R. Barthes, S/Z , Editions du Seuil, 1970, Paris, p.10.

[٥٨] - جون ستروك، البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى ديريدا، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٠٦، شباط ١٩٩٦، الكويت، ص. ٩٩.

[٥٩]- S/Z, p.10.

[٦٠]- F. EVRARD, Roland Barthes, p.76.

وثاني النقطتين استخلاصه أنظمة الترميز الخمسة التي يستخدمها في تفكيك قصة بلزاك المذكورة. يحدد بارت في بداية عمله S/Z خمسة نظم "غدت من أشهر مبتكراته"([٦١]) يستخلصها من قراءته التحليلية الطويلة لقصة سارازين لبلزاك، ويقابلها بخمسة أصوات دالة على طبيعة عملها أو آليته. ويصف هذه المجموعة من الأنظمة الدالة بأنها الأداة التي يتم بواسطتها توليد المعاني، ويراها مناسبة للتحليل السيميولوجي لأنها تكون مجموعة متكاملة من العناصر الصالحة للتطبيق، ويراهن على مصداقيتها ويعلن عن ثقة مطلقة بفاعليتها إلى درجة يقر معها بعدم وجود نظام آخر خارج هذه الأنظمة الخمسة التي طرحها وكانت أساس منهاجه في دراسته السيميولوجية لنص بلزاك، بل ويضيف إليها أن النص لن يحصل على شرعيته إلا إذا مر بها وهي([٦٢]):

النظام التأويلي: ويضم مجموعة الوحدات التي يطرح من خلالها لغزاً ما وتثير حوله اتجاهات من الشكوك لمعرفة طبيعته أو نوعه أو تحديده ثم تصل إلى الكشف عن هذا اللغز سواء أكان ذلك بإعلانه مباشرة أو بتأخير ذلك إلى وقت لاحق (إنه صوت جلاء الحقيقة آجلاً أم عاجلاً)، كعنوان القصة نفسه سارازين، ماهو؟ هل هو اسم لشخص (رجل أم امرأة) أم لشيء (مادي أم معنوي) أم لمكان (مدينة أم قرية) ..الخ. إذن هو نظام نستطيع من خلاله تمييز أشكال أو وحدات مختلفة يتركز حولها لغز ويتكون ثم يكشف عن ذاته (وغالباً ما تتكرر هذه الأشكال التعبيرية دون أن تظهر ضمن ترتيب واحد).

نظام الأفعال: ويشمل الوحدات السردية التي تقوم على الأحداث والأعمال والتصرفات والسلوكات التي تتابع في مراحل متنوعة يصعب جمعها في ترتيب منظم من العلاقات لكنها تعكس تجارب متنوعة في النص (صوت التجربة والحالات العملية) وتعددية النص وتداخل وحداته الكتابية. يحاول بارت إطلاق اسم على كل مقطع ضام لهذه الوحدات (مثل: السخرية، الشجرة، الإخصاء..الخ) فإذا قبل التسمية صنفه في نظام الأفعال، ثم يجمع هذه التسميات لتكوّن بتركيبها معنى للنص.

النظام الدلالي: يحيط بدلالات المواقف والأشخاص والأمكنة والأزمنة والأفعال المكونة للسرد وبالمعنى وأجزائه وتعدديته وتناقضاته وتشابكات العلاقات والتحليلات النفسية والاجتماعية الكامنة في النص (يقدم صوت العوامل الفاعلة فيه). ومن تلاقي المعاني والدلالات الإيحائية مجموعة في شخص أو فعل أو رمز نستطيع التعرف إلى مزاياه ومعانيه وخلفياته، أي تحديد مواصفاته العامة والخاصة، المعلنة والكامنة، الزمانية والمكانية ..الخ.

النظام الرمزي: وربما يكون تابعاً لسابقه، فهو قائم في الوحدات السردية التي توحي لنا بالشيء ونقيضه دون أن نعطي أفضلية لأحدهما على الآخر إلا من خلال توظيفه الترميزي في النص (صوت الرموز)، ومن ذلك ثنائيات الإخفاء/الإعلان، الإخصاب/الإخصاء، الغنى/الفقر ..الخ. وتتميز وحدات النظام الرمزي بأنها بعيدة عن التصنيف بسبب انشغالها بتعددية الدلالات وتحول اتجاهاتها وقد نقول تناقضاتها.

ويهتم النظام الخامس -وهو الثقافي- بكل ما يحيل على واقع خارج النص هو مجال المعارف الإنسانية كالحقول العلمية والاجتماعية والنفسية وغيرها (صوت العلم والمعرفة). ولا يمكن للنص الاستغناء عن الإحالات المتوالية إلى إشارات أخلاقية أو اجتماعية أو علمية ..الخ تكون -في نسيج النص- شواهد استناد الخطاب الأدبي على المرجعيات الثقافية العامة([٦٣]).

---

[٦١] - البنيوية وما بعدها، ص. ١٠٣.

[٦٢] - ينظر في هذا المجال S/Z وخاصة ص.ص. ٢٥-٢٧.

[٦٣] - يطبق روبرت شولز في كتابه السيمياء والتأويل هذه الأنظمة على قصة ايفلين لجويس، انظر الكتاب ص.ص. ١٦٧-١٧٤.

يحاول بارت في كتابه هذا أن يقدم القصة البلزاكية محللة بوصفها قصة قابلة للكتابة لا للقراءة فقط. ولما كان النص الأدبي قائماً على التعددية في أنظمة الدلالة كان خضوعه لتأويلات كثيرة تمنحه تعددية في المعنى. وكل نظام منها يمكنه أن يقود باتجاه تأويلي ضمن رؤية التعددية دون أن يهيمن أحدها ويغيّب الباقي إذ "من المسلم به أن لا يتغلب تأويل على آخر ما دام النص يتحدد بصفة دقيقة بالمطالبة بالتعدد"([٦٤]).

## ٣-٣ أي سيميولوجيا؟

من المعروف أن الاتجاهات السيميولوجية تصنف في ثلاثة تيارات متمايزة عن بعضها بدرجات لكنها متداخلة في الوقت نفسه بدرجات أكبر، ولهذا لا يكون التمييز بينها إلا من مبدأ التوضيح لا التحديد القطعي، وهي: سيميولوجيا الثقافة أو التواصل أو الدلالة.

يتميز الاتجاه الأول بموضعة العلامات في فضاء الثقافة بوصفها "الوعاء الشامل الذي تدخل فيه جميع نواحي السلوك البشري الفردي منه والجماعي"([٦٥]). فالعلامة لا تكتسب دلالتها أو قيمتها إلا في إطارها الاجتماعي والثقافي الذي يضفي عليها صفة الوجود والتداول. وعلى هذا الأساس فإن العلامة المستخدمة في عملية التواصل تكتسب دلالتها وأهميتها في إطار الثقافة التي تحتضنها، وكذلك عبر علاقتها بالعلامات الأخرى. ينظر علماء سيميولوجيا الثقافة إلى العلامة كعنصر بنيوي علائقي يتبوأ مكانته ضمن الأنظمة العلامية الأخرى في الفضاء الاجتماعي، فالعلامة مفردة لا تعني شيئاً إلا من منظور الأنظمة الاجتماعية المترابطة والمتكاملة سواء أكان في بنية أفقية لنظام واحد وعلاقته بالأنظمة الأخرى أم في بنية تطورية ضمن الثقافة الواحدة وعلاقاتها بالثقافات الأخرى.

ويقوم الاتجاه الثاني (التواصل) على تقسيم العلامة أياً كانت ماهيتها (لسانية أو غير لسانية) إلى ثلاثة عناصر: الدال والمدلول والقصد. فلكل علامة امتدادها بين هذه العناصر ويمكن أن تفهم عبر وسائط مختلفة كاللغة أو الصورة أو الصوت أو الرائحة أو غيرها. فمثلاً نستطيع أن نتعرف إلى نوع من الورود إما بذكر اسمه لغوياً أو من خلال رائحته المميزة أو بتقديم صورته أو برسمه أو غير ذلك من أشكال الدلالة. ويركز أصحاب هذا الاتجاه (مثل مونان ومارتينيه وغيرهما) في بحوثهم على الوظيفة التواصلية أو الاتصالية المضمرة في أي علامة دلالية، شريطة أن يحمل هذا التواصل رغبة القصدية بهدف التأثير في المرسَل إليه، مما يعني أن المعنى "رهين بتعيين مقاصد المتكلمين والكشف عنها"([٦٦]).

ولا يخفى على الباحث تأثيرات فلسفة هوسرل الظاهراتية في "سيمياء التواصل" من حيث تحكّم القصدية الواعية بين المرسِل و المرسَل إليه عبر العلاقة المقصودة في عملية التواصل، فليس ثمة علاقة بمنأى عن القصد، بل إن القصد هو السبب الرئيسي في عملية خلق العلامة الهادفة إلى التواصل. وقد كان "القصد"مفهوماً محورياً في فلسفة هوسرل ومفاده "أنه من بين كل الخبرات هناك خبرات معينة تتميز بأنها خبرة بموضوع، هذه الخبرات يسميها هوسرل (خبرات قصدية). ومن حيث أنها وعي (حب، تقدير..... الخ) بشيء ما، فإنه يقول إنها خبرات ذات (علاقة قصدية) مع ذلك الشيء"([٦٧]). وهذا يعني

---

[٦٤] - رولان بارت والأدب، ص. ٤٦.

[٦٥] - سيزا قاسم، السيموطيقا: حول بعض المفاهيم والأبعاد ضمن كتاب أنظمة العلامات في اللغة و الأدب والثقافة، بإشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، ١٩٨٦، القاهرة، ص٤٠.

[٦٦] - السيميائية: الاتجاهات المعاصرة ووظائف العلاقات، ضمن كتاب معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، البنيوية، السيميائية، التفكيك، لعبد الله إبراهيم وآخرين، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، بيروت-الدار البيضاء، ص.٨٤.

[٦٧] - بخصوص فلسفة هوسرل ومفهوم الوعي القصدي ينظر: الفلسفة المعاصرة في أوربا، إ.م.بوشنسكي، ترجمة عزت قرني، سلسة عالم المعرفة، ع. ١٦٥، الكويت، ١٩٩٢ ص٢٣٤.

أنّ العلامة، وفق السيميولوجيا الفينومولوجية، لا تكتب كيانها إلا حين تحمّل بطاقة من الوعي القصدي، أي حين يتوجه إليها الوعي بقصد ما.

يرسخ الاتجاه الثالث (الدلالة) تراث سوسور المتعلق بالعلامة ودلالاتها بوصفها وحدة ثنائية المبنى، وخاصة العلامة اللغوية التي تتكون من وجهين: الدال (الصورة الصوتية) والمدلول (التصور أو المفهوم). يقول سوسور : "إن العلامة اللسانية لا تربط شيئاً باسم بل تصوراً بصورة سمعية"([٦٨]). والملاحظ في مفهوم سوسور للعلامة اللغوية هو غياب المرجع الذي يساوي العالم في تعريف العلاقة اللغوية، وهو غياب بمعنى عدم العودة إلى الواقع لأننا لا نستطيع استحضاره في كل علامة بل بمقدورنا أن نستحضر ذهنيا الصورة أو المفهوم الذي ترمز إليه العلامة في أي وقت. وهذا تمييز واضح بين الإشارة والمرجع، بين الكلمة والشيء، فـ "الإشارت لا تشير إلى الأشياء، بل تدل على مفهومات، وهذه المفهومات من أركان الفكر وليست من أركان الواقع"([٦٩]). أما العلاقة بين الدال والمدلول عند بارت فقائمة على التكافؤ والتقابل لا على المساواة ضمن ما يسميه بارت بالإيحاء الكلي. إن الدال بمفرده لا معنى له إلا من خلال العلاقة التي يقيمها مع المدلول ووجود المتلقي الذي يدرك دلالات هذه العلاقة.

تأسيساً على ما سبق صنف عدد من النقاد السيميولوجيا البارتية في النوع الثالث من السيميولوجيا معتمدين على استفادته من ثنائيات سوسور. لكن الدراسة النافذة لأعمال بارت تؤكد أنه، -وإن ركز على المفهوم الدلالي-، يتجاوز الإطار المحدود الذي اشتغل عليه سوسور ليحلق في وسط أشمل وأعم هو أنظمة الدلالة الثقافية بمختلف أوجهها وتنوعاتها. ويقترح هو نفسه ذلك في مقابلة له: "يمكننا القول: إنّ الثقافة بمعناها الواسع تقع تحت مرمى علم الدلالات"([٧٠]).

## كلمة

رغم أن رولان بارت أدخل تحسينات على سيميولوجيا فرديناند دو سوسور إلا أنّ سيميولوجيته ظلت محصورة في استثمار المقولات البنيوية، وهذا ما جعلها محصورة ضمن نطاق عالم العلامة بحديها الدال والمدلول. ولم يقترب بارت من سيميوطيقا بيرس الذي منح العلامة أبعاداً ثلاثية: المفسرة (المدلول)، والمصورة (الدال)، والموضوع الذي لا يقابله شيء عند سوسور، مع الإشارة إلى أن كل بعد يتفرع على نحو ثلاثي إلى ما لانهاية.

ومن هنا، ربما كان الاقتصار على المرجعية السوسورية أحد الأسباب التي أوقعت سيميولوجيا بارت في أزمة دفعته إلى الانتقال نحو فضاء التفكيك، إذ كان البحث عن استراتيجية جديدة في الكتابة النقدية.

---

[٦٨]- محاضرات في الألسنية العامة، ص. ٨٨.

[٦٩]- السيمياء والتأويل، ص. ٥٢.

[٧٠]- مقابلة مع رولان بارت في جريدة اللوموند بتاريخ ١٩٦٧/٠٤/١٩

# مكتبة البحث

## المصادر


- BARTHES, Roland, L'aventure sémiologique, Editions du Seuil, 1985, Paris.
- BARTHES, Roland, Mythologies, Editions du Seuil, 1957, Paris.
- BARTHES, Roland, S/Z, Editions du Seuil, 1970, Paris.
- Le Monde, le 19 avril 1967.
- بارت رولان، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم محمد البكري، دار الحوار، ط. ٢، ١٩٨٧، اللاذقية.
- بارت رولان، أسطوريات، أساطير الحياة اليومية، ترجمة قاسم المقداد، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٦، حلب.
- بارط رولان، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط. ٣، ١٩٩٣، الدار البيضاء.

## المصادر

BARTHES, Roland, L'aventure sémiologique, Editions du Seuil, 1985, Paris.

BARTHES, Roland, Mythologies, Editions du Seuil, 1957, Paris.

BARTHES, Roland, S/Z, Editions du Seuil, 1970, Paris.

- بارت رولان، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم محمد البكري، دار الحوار، ط. ٢، ١٩٨٧، اللاذقية.
- بارط رولان، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط. ٣، ١٩٩٣، الدار البيضاء.
- بارت رولان، أسطوريات، أساطير الحياة اليومية، ترجمة قاسم المقداد، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٦، حلب.

## المراجع

EVRARD, Franck, Roland Barthes, Bertrand-Lacoste, 1994, Paris.
KLINKENBERG, Jean-Marie, Précis de sémiotique générale, De Boeck Université, 1996, Paris.

- إبراهيم عبد الله وآخرون، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، البنيوية، السيميائية، التفكيك، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، بيروت-الدار البيضاء.
- إيغلتون تيري، نظرية الأدب، ترجمة ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٥، دمشق.
- الرويلي ميجان و البازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط. ٢، ٢٠٠٠، بيروت-الدار البيضاء.
- توسان برنان، ما هي السيميولوجيا ، ترجمة محمد نظيف، أفريقيا الشرق، ط ١، ١٩٩٤، الدار البيضاء.
- جوف فانسان، رولان بارت والأدب، ترجمة محمد سويرتي، أفريقيا-الشرق، ١٩٩٤، الدار البيضاء.
- ستروك جون، البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٠٦، شباط، ١٩٩٦، الكويت.
- سوسور فرديناند ده، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد نصر، دار نعمان للثقافة، ١٩٨٤، بيروت.
- شولز روبرت، السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٤، بيروت.
- عناني محمد، المصطلحات الأدبية الحديثة، دراسة ومعجم إنجليزي-عربي ، بيروت مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦، بيروت.
- غيرو بيار، السيمياء، ترجمة أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات، ١٩٨٤، بيروت-باريس.
- غيرو بيار، علم الدلالة، ترجمة أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات، ١٩٨٦، بيروت-باريس.
- قاسم سيزا، أنظمة العلامات في اللغة و الأدب والثقافة، بإشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، ١٩٨٦، القاهرة.

يوسف غازي، مدخل إلى الألسنية، منشورات العالم العربي الجامعية ط ،١٩٨٥

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ٢٠٠٢/٣/٢٦